الأدب فى سير أعلامه :

# ملـــتن . . .

[ القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . . ]

للاســـتاذ محمود الخفيف

— ٣١ —

البطل الضرير :

أيقن ريتشارد ولم يك له شيء مما كان لأبيه من قوة العزم وصدق العبقرية أن الجيش قد غلبه على أمره ، بعد أن آثر الانحياز إليه وطرد من أجل ذلك البرلمان الذى اجتمع فى عهده لكثرة أنصار الملكية فيه ، فلم يعد له وهو حامى الجمهورية بعد أبيه من السلطان شيء ، ففضل أن يركن إلى الدعة وأن يفلت من الحكم إذ لا طاقة له بالنضال والاقتتال فى وقت اضطربت فيه شؤون الدولة وتصارعت أهواء الرجال ، فترك « هويت هول » إلى داره قبل أن تكرهه الحوادث إكراهاً على ذلك ...

وأصبح الحكم لرجال الجيش ، وكان على رأسهم فى انجلترة لامبرت ، ولكن لامبرت فوجئ بهجوم مُنْك قائد كرمول فى اسكتلندة فنهض لملاقاته ، وتهددت البلاد حرب جديدة ، ولكن فيرفاكس ذلك الذى نجده ملتن بمقطوعة من مقطوعاته — كما رأينا — أنذر لامبرت بأنه منضم إلى منك ، فاستخذى لامبرت وتفرق أصحابه وتم الأمر لمنك ، فدعا مؤتمراً لينظر ما ذا ينبغى فعله ، فجاءت الكثرة فيه من الملكيين والبرسبتيريز الذين أذعنوا على رغمهم سنين للجيش ، واجتمعت كلمة المؤتمر على إعادة الملكية ، وذلك فى مايو سنة ١٦٦٠ .

وكان ملتن فى ذلك الجو الملئ بالعواصف لا يزال يشغل نفسه بالدفاع عن الجمهورية ، فنشر فى مارس سنة ١٦٦٠ آخر كتيباته السياسية ، وجعل له عنواناً طويلا هو : « الطريقة العاجلة السهلة لإقامة جمهورية حرة وما يترتب على ذلك من حسنات إذا قورن بالأخطار وعدم التلاؤم المترتبين على السماح بإعادة الملكية فى هذه الأمة » .

وحسب القارئ عنوان الكتاب وحده للدلالة على مبلغ ملتن من الشجاعة ؛ وليس مصدر شجاعته التهور ولا الجهل بما يحيط به كما قد يخيل إلى بعض حسدته وكارهيه ، وإنما كان مثله مثل الجندى فى مدينة محاصرة ، إذ تأبى عليه نفسه إلا أن يطلق آخرما فى كنانته وأن يبذل أقصى ما فى طوقه أنفة منه وحفاظاً وإن علم أنه هالك لا محالة !

ولم يقف ملتن وحده للدفاع عن الجمهورية الذاهبة وتخويف الناس وتحذيرهم من الملكية العائدة ، وإنما حذا حذوه طائفة من أنصار الحكم الجمهورى ، فكان هو يكتبه هذا ترجمانهم القوى الأمين ، ولكن هؤلاء الجمهوريين كانوا فى الحق أشبه بعلماء بزانطة الذين اشتد بينهم وبين خصومهم الجدل ، بينما كان محمد الفاتح يقرع عليهم أبواب مدينتهم ، وقد سوى جنده وأعد للأمر عدته !

وإن المرء ليتملكه العجب حقاً إذا قرأ ما جاء فى كتيب ملتن ، وقد نشر قبل مجيء شارل الثانى بنحو شهرين . اقرأ مثل عبارته هذه وانظر أى مبلغ بلغت شجاعته : قال : « حقاً ، إن الناس قد أصابهم الجنون ، أو أطبقت عليهم الغفلة ، فهم يعلقون أكبر آمالهم فى الطمأنينة أو الأمن على رجل واحد ، لا يصنع أكثر مما يصنعه أى رجل غيره إن جاءت به المصادفة طيباً ، ولكن له من القوة ما يصنع به من الشر أكثر مما يصنع ملايين الناس إن كان خبيثاً ، وليس يصده عن وجهه أحد ؛ إن سعادة الناس لا تتحقق إلا فى مجلس حر يختارونه كله بأنفسهم حيث لا يتحكم فرد واحد ولكن يسود العقل وحده ؛ وأى جنون هذا الذى يبلغ بقوم يقدرون على أن يديروا شؤونهم فى نبل حتى يلقوا تدبير هذه الشؤون على كاهل رجل واحد ، ويفعلون ذلك فى ضعف واستخذاء ، فيكونون أشبه بصبية لم يبلغوا سن الرشد إذ يتركون كل شيء لرعايته ومطلق تصرفه فى حين أنه لا يستطيع أن ينهض بما تعهد به ، وهو فى الوقت نفسه إذ يؤجر على تعهده لا ينظر إلى نفسه نظرة خادمهم ، بل يعد نفسه سيدهم المطاع ! »

ويقترح ملتن أن يكون للمجلس الذى يشير إليه حق الاجتماع مدى الحياة ، فلا يتغير رجاله كل مدة معينة إلا من مات أو تركه لأمر ما ؛ ويقول ملتن إن هذا المقترح يبدو عجيباً لأول وهلة عند قوم ألفوا البرلمانات ، ولكنه واثق بهذه البرلمانات المتغيرة ، وعنده أن مثل هذا المجلس الدائم يكون أجدى على الدولة ، لأنه يكتسب الخبرة بطول الأمد ، ويقف على حقيقة ميول الناس ، وما يتطلبه إصلاح أمورهم وتتوثق صلاته بهم ، كما تعظم خبرته

بالأمور الخارجية ، ولكي تضمن الدولة صلاحية من يختارون وصلاحية من اختيروا ، ينبغي أن تصلح نظام التعليم وتغرس في نفوس الناس حب الفضيلة والإيثار والتواضع والاعتدال ، فلا يغترون بالمظاهر ، ولا يخضعون لذوي المال والجاه ، ويجب أن يعلموا مبادئ الحرية ، ويعلموا كيف يسمون بأرواحهم وعقولهم ولن يحقق هذا للناس إلا جمهورية رائدها الخير للجميع .

ولكن ملتن يائس من بني قومه ، موقن أنهم لن يستمعوا له فيقول : « إني على يقين أنه كان عليَّ أن أتحدث إلى الشجر والحجارة فحسب ، فليس ثمة من أصيح به ، ولكني أهتف مع النبي: أيتها الأرض .. أيتها الأرض . أيتها الأرض ... لأنبئ التربة نفسها ما يصم أبناؤها المخالفين آذانهم عنه » !

ويتحسر ملتن على الأمل الضائع فيقول : « أين ذلك البرج الشاهق الطيب ؟ أين الجمهورية التي افتخر الإنجليز بأنهم يقيمونها لتغشى الملوك بالظلمة وتكون روما أخرى في الغرب ؟ ... إذا عدنا إلى الملكية ووجدنا المساوئ القديمة تعود شيئاً فشيئاً .. تلك المساوئ التي لا بد أن تنجم عن الملك والقسيس مجتمعين ، فربما اضطررنا إلى أن نحارب مرة ثانية كل ما حاربناه من قبل ، وكلما اعتبرت في هذه الأشياء الواضحة السهلة المعقولة ! »

ولكن هذه الصيحة على قوتها وبلاغتها وما تنطوي عليه من حرارة الإيمان وجرأة القلب ، ما لبثت أن ضاعت في ضجيج الناس وأفراحهم بالملك العائد وذهبت في المواكب الهاتفة وفي رعود المدافع القاصفة ، كما تذهب حفنة من الماء يلقى بها في عباب دافق ، فها هو ذا شارل الثاني يهبط انجلترة في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٦٠ ، وهو يوم عيد ميلاده ، فأصبح كذلك عيد عودته ، وكان له من العمر يومئذ ثلاثون عاماً.

وكانت عودة الملكية وبالا على ملتن والجمهوريين جميعاً ؛ فقد فقد منصبه بالضرورة ، ولكن فقد المنصب خطب هين إذا قيس إلى ما بات يتهدده وأصحابه ، ولم يك ملتن يتوقع أقل من الشنق نكالا به وبمن ذهب مذهبه من الجمهوريين ، وكان اسمه أبغض الأسماء إلى الملكيين بعد اسم كرمول وحده ، ولم يعف كرمول الموت من التنكيل برفاقه . فقد بلغ الحنق بالعائدين أن نسوا إنسانيتهم فأخرجوا رفاته من القبر وشنقوا ما تركه البلى من عظام كما يشنق الأحياء في حفل شهده الناس ؛ ولن يعمل الحقد والحنق فيما نرى إلى أبعد من هذا ، ولن يكون في السخف ما هو أسخف من هذه الفعلة التي نحار كيف نصف شناعتها ، وأي نعت ننعتها به ، وإذا كان هذا موقف الحانقين من الموتى فكيف بموقفهم من الأحياء ومن ملتن على الأخص ذلك الذي دافع عن إعدام شارل والذي ناصر حكومة كرمول بكل ما في طاقته من جهد ، والذي لم يأل جهداً في السخرية من أسرة ستيوارت وإطلاق قلمه فيهم بكل عيب ، والذي ظل عدواً للملكية يرى فيها شراً محققاً ويدعو الناس إلى كراهيتها بكل ما في وسعه من أوجه القول ووسائل الإقناع إلى ما قبل عودتها بنحو شهرين ...

ولم يك يشك أحد من أعدائه أنه يتحدى الموت ، وإلا فما باله يريد أن يسمع الشجر والحجارة ما لا يريد الناس أن يسمعوا ، وما باله يظل على عناده لا يتزلزل ولا يتحول ، وأيقن أصدقاؤه أن الموت لا محالة جزاؤه ، فحملوه إلى سنفيلد حيث أخفوه أربعة أشهر من مايو إلى أغسطس ١٦٦٠ .

وفي أواخر أغسطس أصدر الملك عفواً عاماً عن أعدائه السياسيين إلا من جاءت أسماؤهم في قرار العفو ، فهؤلاء حق عليهم العقاب ، وهم الذين كانت لهم صلة وثيقة بمحاكمة شارل الأول وإعدامه ، وقد أعدم من هؤلاء عشرة وألقي في السجن عدد غيرهم ، ولم يك ملتن من هؤلاء ولا من هؤلاء ، إذ لم يدرج اسمه فيمن استثنى من العفو ...

وكيف تأتى ذلك ؟ كيف نجا ملتن من حبل المشنقة وهو الذي برر إعدام شارل في كتاب أذاعه في أوربا لا في انجلترة وحدها ؟ هل أنجاه الإختفاء ؟ كلا ؛ فلم يك يمنع اختفاؤه أن يجيء اسمه فيمن يقتلون أو يسجنون حتى يعثر عليه ..

لقد ذكرت آراء حول نجاته ، ولكن مردها جميعاً إلى الظن ، إذ لم يقف المؤرخون على حقيقة مقررة في هذا الأمر ؛ فمن قائل إن أصدقاءه في البرلمان الجديد بذلوا قصارى جهدهم لينجوه ، وكان له في البرلمان بضعة نفر من المعجبين به ومنهم صديقه الحميم مارفل ؛ وثمة رواية رواها ريتشاردسون في مذكراته وهو أحد من كتبوا عن ملتن في أوائل القرن الثامن عشر ، وقد استمدها من الشاعر پوپ الذي يعزوها إلى بترتون أحد مشاهير الممثلين في الفترة التي أعقبت عودة الملكية ، والذي يرجح أنه أخذها بدوره من الشاعر الملكي دَفِنانت ، ومؤداها أن دفنانت هذا قد ألقي به في السجن أثناء النزاع بين شارل الأول

والبرلمان ، ولـكن ملتن عمل على نجاته وما زال يسعى حتى أطلق سراحه ، فلما دارت الأيام دورتها ووقع ملتن فى مثل ما كان فيه دفنانت ، رد هذا الشاعر له الجميل فعمل على خلاصه ؛ وهناك رأى غير هذين يميل إليه كثرة النقاد ومنهم دكتور جونسون وخلاصته أن مرد نجاته إلى شيء من القدر وشيء من العطف ، فإن رجلا مثل ملتن كان خليقاً أن يحمل بعقوبته كثيراً من أولى الرأى والبصيرة على أن يقدروه حق قدره فيطلقوه لما هو عسى أن يأتى به فى الشعر والفن مما يكون من مفاخر بلاده ؛ وكذلك كان ملتن خليقاً أن يحمل الظافرين على الرحمة به لما أصابه ، فهو اليوم ضرير فقير وحسبه ما أنزله به الدهر من حزن وما ناله به من عقوبة ؛ ولقد كانت كلة واحدة من شارل كفيلة أن تفقده حياته ، ولـكنها كانت تفقد أدب انجلترة وأدب الدنيا كلها « الفردوس المفقود » و « الفردوس المستعاد » و « سمسُن أجُنسْتِس » ، تلك الآثار الخوالد التى ما كانت تجود بمثلها أو بما يقرب منها عبقرية غير عبقرية ملتن .

وشمل العفو ملتن ، ولـكن كان للناس عجباً بعد ذلك أن يأمر البرلمان به فيلقى فى السجن ، حيث أحرقت كتبه أمامه ، وإن لم ير شيئاً حوله ، فإن ما يحيط به من ظلمة لن يمحوها ألف نار كالنار التى أوقدتها كتبه ؛ ولا يزال أمر حبسه على هذه الصورة غامضاً ، ولـكن « ماشُ » ، وهو من أشهر من كتبوا عنه يفسر ذلك بأن البرلمان كان قد أصدر هذا الأمر بسعى أصحابه ليجنبوه به الكارثة الصحيحة ، وهى إدراج اسمه فى المستثنين من العفو ! ومهما يكن من الأمر ، فإنه لم يلبث إلا قليلا حتى أمر بإطلاقه ، ولإطلاقه قصة نوردها كشاهد جديد على عناده واستكباره ، حتى فى مثل هذا الظرف ، فقد طلب إليه القائم على أمر السجن أن يدفع أجرة إقامته حسب المتبع ، ولـكن ملتن رأى أنه غالى فيما طلب ، وأحس فى ذلك جوراً ظن أنه مقصود به فرفض أن يدفع — وفى يده المال المطلوب — فما يطيق أن يتحكم فيه رجل مهما لقى من عنت الأيام ، وتقدم أصحابه فأدوا عنه المال المطلوب على غير علمه ، وجاء بعضهم فأخرجه من السجن ، وكان ذلك فى نهاية سنة ١٦٦٠ ، وله من العمر اثنتان وخمسون سنة .

ولولا ما كان يحيط بالشاعر العظيم من أسباب الشقاء والأسى لجاز أن يتطرق شيء من الفرح إلى فؤاده ، وقد نجا من الموت واسترد حريته ، ولـكن أين هو من الفرح ، وإنه ليذوق مرارة الفشل ويجرر أذيال الخيبة ؛ فى بضعة أشهر ذهبت جهوده التى بذلها فى عشرين سنة من عمره هباء ، وخرصرح آماله من قواعده ورأى أصحابه يساقون إلى الموت ، كما سمع بالقبور تفتح فيحمل إلى المشنقة من طوتهم يد المنون ! وبلغ من نفسه كل مبلغ أن يجد الـكنيسة وقد عادلها سلطانها فى ظل الدولة ، وأن البرلمان يقيد حرية النشر بقيود غليظة ، وأن الحياة يشيع فيها الفجور والفسوق ، ويتسلط على سياسة الدولة النساء والمتعصبون والأذلاء من المتملقين والماجنين .

وترك ملتن الحى القريب من هوبت هول ، واتخذ له مسكناً بعيداً فى المدينة أو فيما جاورها . ويقول ريتشاردسون إنه لبث أياماً ينتابه الرعب أن يؤخذ غيلة بيد متعصب من أنصار الملكية ، ولذلك كان قليلا من الليل ما يهجع ، وكان خوفه على بناته أشد من خوفه على نفسه !

وقل حظه من الثراء قلة كبيرة ، فقد فقدَ مرتبه كما فقد ألفين من الجنيهات تعادل سبعة آلاف من جنيهاتنا اليوم كان قد أودعها فى مأمن حكومى أثناء الجمهورية ، فصودرت كما صودر بعض ما اشتراه من أملاك ؛ على أنه على الرغم من ذلك ظل يعيش عيشة مرضية لا هى إلى الرغد ولا هى إلى العوز .

وأصابه النقرس ، فكان يلقى من آلامه ما يتضاءل عنده ما يعانى من عمى ، وظل هذا المرض ينتابه من حين إلى حين ، فيضيف آلامه إلى ما ترشقه به الأيام من سهام !

وكان أوجع هاتيك السهام ما كان يلقاه على أيدى بناته ، وكانت كبراهن سنة ١٦٦١ فى الخامسة عشرة من عمرها ، ووسطاهن فى الثالثة عشرة ، وصغراهن فى الثامنة ؛ وهن بناته من زوجته الأولى التى ماتت سنة ١٦٥٢ ؛ وكان يأمل أبوهن أن يكن أنسه وسلوة نفسه فى وحدته وشقائه ، ويكن له عوناً على الأيام ، وهو الضرير الذى زال عنه جاهه وألح المرض على بدنه ، وهجره إلا قليلا ابنا أخته ، إما انشغالا بما ملأ قلبيهما من لهو أوتهرباً مما يكلفهما به من قراءة ومراجعة ، ولم يذكرا يده عليهما وقد رباهما فى بيته صغيرين ولبثا فى رعايته من عمريهما سنين .

ولـكن عقوقهما لم يك شيئاً مذكوراً تلقاء عقوق بناته ، فقد كان أسوأ ما لقى من دهره هذا العقوق الذى ذاق معه أعمق الحزن ، وهو الشاعر الذى تتأثر نفسه بالمعانى أضعاف ما يتأثر بها غيره من الناس ، ولعقوق بناته إياه قصة يحسن أن نأتى بها على سردها ...

(يتبع) الخفيف